أنزل الله سبحانه في كتابه العظيم سورتين تبينان للناس كيف يكون الحج إلى بيته المعظم، هما: سورة الحج وسورة البقرة، أما سورة البقرة وهي الثانية نزولا فهي سورة (أوامر ونواهي) ولذا جاء التأكيد فيها على الأقوال والأفعال وأحكام الإتمام والمنهيات والكفارات، وبدأت بزمن الحج (الأهلة) وختمت بذكر الله في الأيام المعدودات، وتأتي الإشارة فيها للتقوى تنبيهًا على هذا الأصل العظيم.

وأما سورة الحج فهي (سورة قلبية) فآيات الحج فيها غالبها عن حج القلب ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡ ﴾ الحج: ٣٧، ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ الحج: ٣٠، ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ﴾ الحج: ٣٢.

فمن جمع بينهما في حجته جمع الخير كله، ومن انتقص منهما أو من أحدهما انتُقص من حجه بقدر نقصه، وإنَّ مما تظاهرت النصوص في الدلالة عليه أن كمال أو نقص (حج القلب) أعظمُ أثرًا في قبول الحج أو رده من أثر (أعمال الجوارح) مع الضرورة لهما جميعًا، ولكن ﴿ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ﴾ الطلاق: ٣، فليس الكمال في تعظيم القلب لهذه الشعائر كالكمال في سنن الطواف والسعي والرمي ونحوها، ولا الخدش في لباس التوحيد كالخدش في لباس الإحرام، ولا تطهير القلب من الرياء والعجب والكبر كتطهير اللسان من العبث وتطهير البدن من التفث والثياب من الوسخ. وكلاهما دين قد تعبدنا الله به لكن الأول أصل والثاني فرع له، وبينهما تلازم ظاهر إلا في حال صلاح الظاهر مع فساد الباطن.. وما أحسن قول القائل في شأن المسير إلى الله:

قطع المسافة بالقلوب إليه لا

بالسير فوق مقاعد الركبان

السورة العجيبة

تتابع جمع من الأئمة المفسرين على أنها: من أعاجيب سور القرآن.

وقد تدبرتها دهرًا ليس بالقليل، ونظرت في تفاسير السلف وأئمة المحققين من المتأخرين فما ركنتُ إلى وصف يخصها إلا أنها (سورة الأحبار) -أعني الراسخين في العلم- لعمق معانيها، وصعوبة الربط بين سياقاتها، وكثرة الخلاف العالي بين الفحول في أوجه تفسيرها.

فمن خصائص هذه السورة:

١- أنه لم يجتمع في القرآن كلِّه: المكي والمدني والليلي والنهاري والسفري والحضري والحربي والسلمي والناسخ والمنسوخ والمحكمُ والمتشابه والشتائي والصيفي إلا في (سورة الحج).

٢- وقد اختلف الصحابة في كونها مكية أم مدنية؟

٣- ولم تسمَ سورة باسم ركن من أركان الإسلام إلا (سورة الحج)، ولا يعرف لها غير هذا الاسم.

٤- ولم تجتمع سجدتان في سورة من القرآن إلا فيها، روى الإسماعيلي في مستخرجه: أن عمر قال: فضلت (سورة الحج) بسجدتين.

٥- ولم تفتتح سورة في النصف الأخير من القرآن بـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ إلا (سورة الحج).

٦- وفي القرآن بضع وستون مثلا لم يقل الله ﴿ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓ ﴾ الحج: ٧٣ إلا في مَثَل سورة الحج.

٧- وفيها ذكر القلوب الأربعة: الأعمى والمريض والقاسي والمخبت الحي المطمئن إلى الله، ولم تجتمع هذه الأربعة إلا في سورة الحج.

٨- وفيها الآية التي لم تترك خيرًا إلا جمعته ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ الحج: ٧٧.

فهذه ثمانُ خصائصَ تميزت بها عن أخواتها من سور القرآن.

مقصود السُّورة

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية عن مقصودها: (تضمنت منازل المسير إلى الله، بحيث لا يكون منزلة ولا قاطع يقطع عنها). وكلام هذا الإمام يحققه أن السورة سميت باسم الحج، والحج في اللغة: هو القصد إلى معظم، وأعظم مقصود هو الله العظيم سبحانه، والناس كلهم سائرون إلى هذا العظيم في جلاله وجماله ورحمته وعذابه جل في علاه.

فهي علامات ومنارات للسائر، في أي طريق يسلك؟ ثم كيف يسير؟ وما هو زاده؟ ومن أي شيء يحاذر؟

وأول هذه العلامات في السورة:

هو الأدب في أسلوب الخطاب حتى مع الكافر، فإن النداء بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ إنما يراد به المشركون كما قاله ابن عباس، وهذا ظاهر، فعلى كثرة النداءات في القرآن لم يأت الخطاب بـ (يا أيها المشركون) ولا (يا أيها الذين أشركوا) في القرآن كله، بل جاءت آيتان فقط ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، بينما تكرر النداء بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في تسعة وثمانين موضعًا، وتكرر أيضا النداء بـ ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ و﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ وغيرها كثير، والقرآن خطاب للمشركين كما هو لغيرهم ولا يوجد نداء لهم إلا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فكان كما قاله ترجمان القرآن .

وقد عَددتُ في الوجه الأول فقط من هذه السورة العظيمة عشر علامات لمن أراد المسير إلى ربه وهي: التلطف في الخطاب.. والقوة فيه.. والعناية بالقلب أولا.. واستعمال التخويف بالآخرة.. والتفصيل في هذا.. والتحذير من أهل الذكاء وأصحاب الألسنة إذا مارَوا وموهوا وزخرفوا الباطل بما أُوتوا من دهاء وخِلابَة فهولاء أتباع الأكابر مِن ﴿كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾.. وضرورة اليقين الماحي لأدنى ريب بالبعث.. والاستدلال بالرؤية البصرية للرؤية القلبية.. ودلائل قوة الجبار في خلقه.. وضعف الإنسان في خلقته.

وامض في هذا ستجد عجبًا من هدايات السورة ودلالاتها.

الحاج مع سورة الحج

الحاج قاصد للبيت العتيق ولا بد له في مسيره هذا من علامات تهديه حتى يصل إلى مقصوده، فجاءت علامات ودلالات القرآن للحاج ظاهرة تلوح في السورة، فأقولها لكل حاج -صادحًا بها-: عجبًا لحاج يقصد الحج ولم يتدبر (سورة الحج)!!

فهي تجمع بين مسير الحاج إلى البيت العتيق بقدميه وبين مسيره إليه بقلبه، تجمع بين تلبية القلب وتلبية اللسان، تجمع بين رميه الجمار بيديه ورميه بقلبه، بين نحره الهدي بيديه وبين نحره مع حضور قلبه.

فإن سألت: كيف نحج بقلوبنا مع جوارحنا؟

فالجواب -والعلم عند الله-: أن رحى آيات هذه السورة العجيبة يدور على (التعظيم)، فمن أراد ذلك فعليه أن يُدخل في قلبه تعظيم ما عظم الله فيها بكثرة النظر والتدبر في آياتها وبما أمرت به أن يُعظّم، ويجتهد في قلبه أعظم الاجتهاد لتحقيق ذلك فيه، ويصبر ويصابر ويقطع الساعات والليالي ويطيل الفكرة ويذرف الدمعة في الخلوة حتى يُفتح له، وهذه أمور قلبية ليس لها إلا طول المجاهدة.

والسورة تؤكد على تعظيم أمور ثلاثة:

الأول: تعظيم الله ربًا ومعبودًا، والخلوصُ إليه والثقة الكاملة به بحيث لا يشوب ذلك نقصٌ ولا كَدَر بأي وجه من الوجوه، وتأمل هذه الآيات فيها:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾ الحج: ١.

- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ الحج: ٦.

- ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ الحج: ١٨.

- ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ الحج: ٣١

- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ الحج: ٦٢

- ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧٠ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ﴾ الحج: ٧٠ - ٧١.

- وفي ختام السورة ذالك المثل العجيب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ الحج: ٧٣ - ٧٤ ، والطالب هنا يشمل من دعا غير الله ومن يطلب الذبابة ليستنقذ منها حقه، والمطلوب يشمل من دُعي من دون الله وأيضًا الذبابة المطلوبة، فالكل وإن كان ملَكًا أو رسولًا أو ملِكًا أو غيرَهم هم ضعاف في جنب القوي القاهر جلّ وعلا.

وأذكر في حجة مضت أن حاجّةً حُشرت عند الحجر الأسود فخافت على نفسها فصاحت وكررت بصوت عالٍ وبينها وبين بيت الله أشبار تقول: (يا بدوي خلصني... يا بدوي خلصني... يا بدوي خلصني...) ألم تقرأ هذه في سورة الحج والله يقول: ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ الحج: ١٢.

وبعض الناس يدعو الله عند الكعبة وبين الصفا والمروة وفي عرفة ومزدلفة ومنى وهو يجرب ربه ليس بواثق ولا موقنٍ من إجابة من دعاه فتقول له آياتها:

- ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ الحج: ١١.

الثاني: تعظيم اليوم الآخر، وآيات سورة الحج تهز القلوب والجوانح هزًّا شديدًا:

- فمطلعها ﴿إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ الحج: ١ - ٢.

و(المرضعة) بالتاء هي التي حالها أنها الآن ترضع صغيرها، فهي ترمي به في وقت مَصِّه لثديها، ويا سبحان الله شجرةٌ لن تُحاسب وبعوضةٌ لن تُسأل ونملةٌ لن توزن وهرةٌ لن تعرض على جنة أو نار؛ فلأي شيء أجهضت هذه جميعًا حملها ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا﴾ الحج: ٢؟!

- وفي وسط السورة ﴿ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ﴾ الحج: ١٩ - ٢١ .

ولعلك أن تتأمل لمَ قدم الله البطون على الجلود هنا، وهذا أبان عنه السلف رضوان الله عليهم فأخرج ابن أبي حاتم عن السُّدي قال: يأتيه الملك يحمل الإناء من شراب النار فإذا أدناه من وجهه يكرهه، فيرفع مِقْمَعَةً معه فيضرب بها رأسه فيَفْدَغ دماغه، ثم يفرغ الإناء من دماغه فيصل إلى جوفه من دماغه.

فكان والحالة هكذا -عياذًا بالله- وصوله إلى البطون أسرع منه إلى الجلود.

- وأما المؤمنون فوعده الجميل لهم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴾ الحج: ٢٣

والآيات في هذا المعنى في السورة كثيرة.

الثالث: تعظيم شعائر الله وأركان دينه العظام كالصلاة والزكاة والحج والجهاد ونحوها.

وقد تكررت الآيات في هذه السورة العظيمة على وجوب تعظيم شعائر الحج:

- ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ﴾ الحج: ٣٢

- ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ الحج: ٣٠

وبيان أن هذا التعظيم أصله في القلب:

- ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ الحج: ٣٧

- ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ﴾ الحج: ٣٤

ومن أعظم ما يقطع مسيرَ الإنسان إلى الرحمن، ومسيرَ الملبين إلى البيت العظيم، قلةُ تعظيم شعائر الله، ولذا أبان الله في هذه السورة العظيمة وكرّر وأكدَ وجوبَ تعظيم المسجد الحرام وتعظيم البيت والحجر، والركن والمقام، والصفا والمروة، ومنى وعرفة والمزدلفة، والجمرات والهدي التي لا تراق دماؤها إلا لله، ولا يعني تعظيمها أن يُتبرك بها أو يُظن أنها تنفعُ أو تضر من دون الله، ولكن ليَعلم الناس أن هذا بيتُ الله أضافه إليه تشريفًا وتعظيمًا له.

وقد جعل الله للبيت مسجدًا، وجعل للمسجد حَرَمًا وحمىً محرمةً يأمن فيها الإنسان والحيوان والشجر ففي الصحيحين (إِنَّ اللَّه حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَات وَالْأَرْضَ فَهِيَ حَرَامٌ بِحَرَامِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَلَا تَحِلُّ لِأَحَدٍ بَعْدِي وَلَمْ تَحِلَّ لِي قَطُّ إِلَّا سَاعَةً مِنْ الدَّهْرِ لَا يُنَفَّرُ صَيْدُهَا وَلَا يُعْضَدُ شَوْكُهَا وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهَا).

وجعل للحمى المحرمة مواقيتَ لا يتجاوزُها قاصد البيت إلا وقد خلع مخيطه وكشف رأسه وأعلن بالتلبية توحيدَه الخالصَ لربه،كلُ هذا تعظيمًا لبيت الله، ولذا ثبت في الحديث عند أحمد وغيره (لاتَزَالُ هَذِهِ الْأُمَّةُ بِخَيْرٍ مَا عَظَّمُوا هَذِهِ الْحُرْمَةَ حَقَّ تَعْظِيمِهَا فَإِذَا ضَيَّعُوا ذَلِكَ هَلَكُوا).

وقد أدرك الصحابة معنى قول الله ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ﴾ الحج: ٣٢، فمن عجائب تفسير ابن عباس قوله: لو لم يحجَّ الناسُ هذا البيت لأطبق الله السماء على الأرض. أخذ هذا من قوله تعالى ﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ ﴾ المائدة: ٩٧ أي به قوام أمور دينهم ودنياهم.

بل أدركت ذلك البهائم ففي صحيح البخاري عن الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ قال: "خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَمَنَ الْحُدَيْبِيَةِ حَتَّى إِذَا كَانَ بِالثَّنِيَّةِ الَّتِي يُهْبَطُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ فَقَالَ النَّاسُ: حَلْ حَلْ.. فَأَلَحَّتْ، فَقَالُوا: خَلَأَتْ الْقَصْوَاءُ خَلَأَتْ الْقَصْوَاءُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مَا خَلَأَتْ الْقَصْوَاءُ وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا، ثُمَّ زَجَرَهَا فَوَثَبَتْ".

فيا لله من قوم لم يدركوا عظمة هذه الشعائر بينما ناقة قد أدركت ذلك!

وقد قال الله في سورة الحج مهددًا ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الحج: ٢٥، وقد ضمَّن فعل (يُرد) ههنا معنى (الهَمِّ) أي أنه سبحانه سيجازي على مجرد الهَمِّ بالظلم حتى لو لم يرتق ذلك في نفسه إلى الإرادة، ولهذا عداه بالباء فقال (بِإِلْحَادٍ) فدلت الباء على الفعل المُضمَّن المناسب لها وهو (هَمَّ) كما هي طريقة البصريين في تضمين الأفعال بدلالة حروف التعدية.

ولو أن الحاجّ تدبر (سورة الحج) وسار في حجه بقلبه وجوارحه معهًا لرأينا حجًا روحانيًا تلُفه السكينة والوقار، وتغشاه الرحمة والألفة، وتُعطِّر كلَّ أرجائه كلمات التسبيح والتكبير والتلبية، وترطب القلوبَ فيه الخشية والدمعة، ولم نرَ ما نرى من مظاهر الخلل في الأمر الدقيق والجلل.

- فكم نرى من نواقض ونواقص التوحيد والتفريط بترك الصلوات في الحج؟!

- وكم نرى من الظلم والسرقة والغش والكذب والسب واللعن والغيبة والنميمة والسخرية بالناس وغير ذلك حول بيت الله وفي شعائر الحج؟!

- وكم نرى من كشف العورات والتساهل في الحرمات في الحج؟!

- وكم نرى من التدخين ورمي القاذورات وأذية الحجاج لبعضهم؟!

فكل هذا إنما يحدث لضعف تعظيمنا للعظيم سبحانه وشعائره العظام.

أخي زائر البيت الحرام.. قد شرف الله أبا الأنبياء إبراهيم بأن يعمل مُطهِّرًا ومُنظِّفًا للبيت العتيق من أدران الشرك والنجاسات ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ الحج: ٢٦.

أفلا نسير على خُطى أبينا الخليل فنطهر الحطيم والحرم وعرفة ومنى وسائر الشعائر من كل شرك وقذر؟

هذه بعض منازل تلك السورة العجيبة العظيمة فاحملها بين جنبيك في حجك وحياتك عسى الله أن يجعلني وإياك من أهلها، وأن تكون حُجة لنا لا علينا.. وصلى الله وسلّم على خير مَن لهذا الشعائر عظَّم،،

تدبُّر الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم

البريد الحاسوبي: tadabbor@tadabbor.com
www.tadabbor.com

تدبُّر الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم

كيف نقرأ سورة الحج؟

لمن أراد الحج بقلبه ودمعته

تأليف فضيلة الشيخ د. عصام بن صالح العويد

بالتعاون مع مركز تدبر للدراسات والاستشارات